

اختيارات المبرّد الشعرية وذائقته في كتابه التعازي والمراثي
دراسة اسلوبية

إعداد: أ.م.د. مها محسن هزاع
جامعة كركوك/ كلية التربية للعلوم الإنسانية/ قسم اللغة العربية

**Al-Mubarrad's poetic choices and taste in his book
Condolences and Elegies, –Stylistical study–**

**Dr.Maha Muhsin Hazzaa
Kirkuk Unversity
College of Education for human Sciences**

مجلة دراسات العلوم
الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم
 اختيارات المبرّد الشعرية وذائقته في كتابه التعازي والمراثي
 دراسة اسلوبية
 أ.م.د. مها محسن هزاع
 جامعة كركوك/ كلية التربية للعلوم الإنسانية/ قسم اللغة العربية

الملخص:

يتناول البحث بعضاً من اختيارات المبرّد الشعرية وذائقته في كتابه التعازي والمراثي بدراسة اسلوبية لبنى بعض من هذه الاختيارات، إذ لا يخفى مكانة المبرّد العلمية على دارسٍ فقد كان - رحمه الله - نجمة لامعة في سماء اللغة العربية الشاسعة، ودعامة من دعائم اللغة والادب، ولم يترك باباً من أبواب علوم اللغة الا طرقة ويتجلى ذلك في كثرة مؤلفاته في العلوم اللغوية والنحوية والنقدية والبلاغية وغيرها كثير. والكتاب موضوع البحث يضم نصوصاً شعرية ونثرية مختارة بدقة وامعان وبأساليب متنوعة في الان نفسه إذ يكشف الذائقة الأدبية الناضجة لعالمنا الجليل وبصيرته النقدية، فارتأينا أن تكون الدراسة على مطلبين اوله: مفهوم الاختيار والذائقة عند العرب، وثانيهما: دراسة اسلوبية في مختاراتٍ من كتاب (التعازي والمراثي) فكان لنا جملة من النتائج في خاتمة البحث تنوعت بين الكشف عن ذائقة المبرّد وتنوع الاساليب في هذه النصوص.

Abstract:

The research deals with some of Al-Mubarrad's poetic choices and his taste in his book, Condolences and Elegies, with a stylistic study of the structures of some of these choices, as Al-Mubarrad's scholarly status is not hidden from a student, as he was - may God have mercy on him - a shining star in the vast sky of the Arabic language, and a pillar of language and literature, and he left no door behind. There are many chapters in linguistic sciences except its methods, and this is evident in the large number of his books in the linguistic, grammatical, critical, rhetorical, and many other sciences. The book that is the subject of the research includes poetic and prose texts carefully and carefully selected in a variety of styles at the same time, as it reveals the mature literary taste of our great scholar and his critical insight. So we decided that the study should be based on two topics: the first: the concept of choice and taste among the Arabs, and the second: a stylistic study in selections from the book (Condolences and Elegies). The research concludes with findings that highlight Al-Mubarrad's refined literary preferences and the diverse methods employed in these texts.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المختار، وعلى آله وأصحابه الأصفياء الأخيار وبعد لا يخفى مكانة المبرّد العلمية على دارس، فقد كان _رحمه الله_ نجمة لامعة في سماء اللغة العربية الشاسعة، ودعامة من دعامات اللغة والأدب، ولم يترك باباً من أبواب علوم اللغة إلا طرقه، وترك فيه بصمته، ليورث الأجيال من علمه الوافر، ويتجلى ذلك في كثرة مؤلفاته في العلوم اللغوية والنحوية والنقدية والبلاغية والعرضية وغيرها كثير، حتى أصبحت منهلاً ثراً يروي ظمأ كل قاصد

وقد اجتمعت للمبرّد _رحمه الله_ كلّ مؤهلات الناقد بحكم ثقافته الواسعة وسعة اطلاعه ونظرتة الثاقبة في فهم النصوص ومعرفة خفاياها فكان بحق رائداً من رواد النقد في عصره، وكيف لا وهو عالم النحو واللغة والأدب. وإذا كانت صفة النحوي واللغوي قد طغت عليه بين الدارسين والمختصين فإن هذا البحث هو محاولة لإبراز صفة مشرقة أخرى فيه _رحمه الله_، وهي صفة الناقد الفذ .

إنّ كتاب (التعازي والمرثي) للمبرّد موضوعة البحث الذي يضمّ نصوصاً شعرية ونثرية مختارة بدقة وإمعان يكشف الذائقة الأدبية الناضجة لعالمنا الجليل وبصيرته النقدية النافذة في اختيار نصوص بعينها في الرثاء والتعازي، وما ذاك إلا دليل على امتلاكه صفات الناقد المتمرس ذي البصيرة في سبر غور النصوص .

ويضمّ هذا البحث مطلبين اثنين، يتناول الأول مفهوم الاختيار والذائقة في عرف النقد العربي ويتناول المطلب الثاني دراسة اسلوبية في اهم اختيارات المبرّد الشعرية في كتابه التعازي، ثم ينتهي البحث بخاتمة تعرض النتائج التي توصل إليها البحث والله الموفق

المطلب الأول: مفهوم الاختيارات والذائقة وأسسهما

إنّ الذي دفع المبرّد الى تأليف كتابه (التعازي والمرثي) هو وفاة صديقه المقرب إليه القاضي إسماعيل بن إسحاق بن حمّاد بن زيد بن درهم؛ وقد صرّح المبرّد بذلك في مستهل كتابه إذ قال: " دعانا إلى تأليف هذا الكتاب اجتلاب محاسن من تكلم في أسباب الموت من المواعظ، والتعازي، والمرثي على قدر ما يحضر، فإننا ابتدأناه من غير خلوة بفكر ولا تمييز وكتب، وإنما اقتضبناه اقتضاباً، ثقة بالله وتوكلاً عليه، مصابنا برجل استخفنا لذلك وبعثنا عليه وهو القاضي إسماعيل بن إسحاق بن حمّاد بن زيد بن درهم".⁽¹⁾

يتبين من كلام المبرّد هذا أنّه لم يؤلف كتابه من أجل التأليف، وإنما ليعزي به نفسه بمصابه الجلل في صديق صباه، بما يستحضره من نصوص شعرية في الرثاء والعزاء؛ وبما تسعفه ذاكرته من أحداث أليمة ألمت بالبصرة وبغداد وزهقت فيها أرواح كثيرة، فتركت أثراً عميقاً في نفسه

وفي خضم هذه النصوص الكثيرة التي جادت بها ذاكرة عالمنا الألمي لم يبق له إلا أن يقبدها في كتاب ليكون بما يضمه من نصوص وأخبار ألمت بناس كثير منذ غابر الأزمان سلوانا لكل قلب مكلموم

ضمّ كتاب (التعازي والمرثي) عيون الشعر العربي في العزاء والرثاء، وهذا ما أشار إليه المبرّد صراحة فقال: " وأشعار الجاهلية مشهورة معروفة، وإنما نملّي منها العيون"⁽²⁾

ولم يقتصر الكتاب على عصر بعينه، وإنما تناول أشهر ما قيل في العزاء والرثاء، فاستشهد لكبار الشعراء في الجاهلية من أمثال أوس بن حجر ودريد بن الصمّة والمهلhel والخنساء.. الخ، كما استشهد بشعر الشعراء الإسلاميين من أمثال متمم بن نويرة

والفرزدق وغيرهما، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى الشعراء المحدثين المعاصرين للمبرد من أمثال مسلم بن الوليد وأبي العتاهية وإبراهيم بن المهدي أخي هارون الرشيد وغيرهم ممن أجادوا في هذا الفن، وبما جادت به قريحة المبرّد المكلمة. وقد علّل المبرّد استشهاده بشعر المحدثين بأنه كان لطلب الانتقال من خشونة أشعار القدماء إلى سهولة أشعار المحدثين ورفقتها وللوقوف على لغة شعر المحدثين لكشف ما بين القديم والحديث من فروق، ولا يخفى أن هذا من صميم عمل الناقد المتمرس، وما ذلك إلا استحسانا لها وتذوقها وهذا واضح من كلامه

قال المبرّد: "وقصدنا في وقتنا هذا لذكر مرثي أشعار المحدثين لننزل بها من خشونة أشعار القدماء إلى لطف المولدين لمشكلة الدهر وملاحة القول لنمضي من ذلك شيئا"⁽³⁾

وقبل الخوض في شواهد الكتاب الشعرية لا بد أولاً من وقفة عند مفهوم الاختيار وآليته والذائقة وأسسها، لنتمكن من الوقوف على سبب اختيار المبرّد أشعاراً لشعراء معينين مادة لكتابه دون غيرهم من الشعراء الذين كانت لهم أشعار في العزاء والرثاء.

أولاً: مفهوم الاختيار وآليته

إنّ الاختيارات الشعرية هي التمييز للنصوص المختارة وتفضيلها على غيرها، وهي عملية قائمة على الإدراك لفنية المختارات الشعرية والثقة بصحتها.⁽⁴⁾

إذن إنّ عملية الاختيار للشعر ليست حشداً للشواهد الأدبية التي ينتجها المصنّفون من بين نتاج الشعراء؛ وإنما هي عملية تذوقية مزوجة بالحسّ الإبداعي للمصنّف، ولما يختاره من نصوص، وبما يكرسه حول تلك النصوص المختارة من حسّ جمالي راق، أو تعليق على الأصل يزيد رونقا وطلاوة.⁽⁵⁾

وتتنظم الاختيارات الشعرية على أسس مختلفة، ولغايات معيّنة، فقد تقوم على شعر شاعر بعينه، وقد تكون اختيارات على أساس مرحلة تاريخية محددة كالشعر الجاهلي أو الإسلامي أو العباسي، وقد تكون على أساس موضوع محدد كالغزل والمديح والرثاء... الخ

والاختيارات بعد ذلك أمر نسبي، لاختلاف ضروب الرثاء وأذواقهم واتجاهاتهم ومحبوبهم الثقافي؛ فكلّ منهم يحركه جانب، ويعلق بذهنه معنى، ويهجه ضرب من الضروب؛ والحكم في ذلك فنّ لمن يحمل مؤهلات الاختيار ويمتلك الذائقة السليمة.⁽⁶⁾ وبناء على ما تقدم فإنّ تنوع الاختيارات مظهر طبيعي لأنه يعتمد على قاعدة التفاوت في الأذواق، والمؤهلات الثقافية، والحاسة الجمالية، والمواقف الفكرية.

ثانياً: الذائقة ومقوماتها

الذوق هو: "الاستعداد الفطري المكتسب الذي نقدر به على تقدير الجمال، أو الاستمتاع به، ومحاكاته بقدر ما نستطيع في أعمالنا وأقوالنا وأفكارنا".⁽⁷⁾

والذوق الأدبي هو: "موهبة إنسانية تنضجها رواسب الأجيال السابقة وتيارات الثقافات المعاصرة، وبامتزاجها جميعاً يتكون التذوق الأدبي".⁽⁸⁾

وعرّف ابن خلدون في مقدمته الذوق بأنه: "حصول ملكة البلاغة للسان"⁽⁹⁾

ومن كلام ابن خلدون هذا تتجلى لنا وظيفة الذوق الأدبي، فالذوق هو الذي يرتقي بالبلوغ الى جودة النظم وحسن التركيب الموافق لتركيب لغة العرب ونظم كلامهم، كما أنّ من وظائفه أنه إذا عرض على صاحب الكلام حائدا عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم الكلام أعرض عنه ومجّه. (10)

وتذوق النصوص الأدبية يحتاج إلى تراكم الخبرة بالشعر والدربة بمسالكه وطرقه، وليس أمرا فطريا يعتمد على إدراك غيبي بالجمال بل هي قائمة على الدربة والممارسة

وهذا ما أكده الدكتور عثمان وافي إذ ذكر بأنّ "الذوق ليس إحساسا فطريا ساذجا بما هو حسن أو قبيح، وإنما هو الحاسة الفنية التي يكتسبها الشاعر، أو الناقد من كثرة حفظه لنصوص الشعر، وممارسته الطويلة لحفظ الشعر وإنشاده وسماعه تكسب صاحبها ممارسة فنية يستطيع بها معرفة جميل الشعر من قبيحه". (11)

إذن الذوق الأدبي لا يتحصل لمن يقوم بعملية الاختيار إلا بإدمان النظر، والقراءة، والدربة التي تعطيه طبعاً نقدياً جيداً يعرف به صحيح النصوص من سقيمها، "فالذوق هو مرد الحكم في الأدب، وهو يكتسب بصحة الطبع وإدمان الرياضة". (12)

وبناء على ما تقدم يمكننا القول: إن الاختيارات قائمة على التذوق، وهذا يتحقق بتراكم الخبرة بالشعر ومسالكه، وبطول الباع في ذلك، وهذا ما نجده في عالما الجليل المبرّد، وكيف لا وهو من هو العالم النحوي اللغوي الأديب، فلا غرابة إذن من أن يكون صاحب هذه الصفات رائدا في النقد علما بدروبه.

وقد اتضح من خلال كتاب (التعازي والمراثي) أن المبرّد قد اعتمد في اختياراته الشعرية على ملكته النقدية وذائقته المرهفة، فقد كان رحمه الله بحكم ثقافته الواسعة، ونظريته الثاقبة في فهم خفايا النصوص ناقدا فذا، وكانت أغلب النصوص التي اختارها لكتابه هي أشعار في التعزية والثناء، لتناسبها مع عنوان الكتاب، ولتوافقها مع الغاية التي من أجلها ألف الكتاب وما اختار إلا أشعارا لشعراء مشهورين في فن الرثاء؛ وقد اختار أقوى ما عندهم لقدرة شعرهم في التأثير، وتوافق ذائقته وذائقة الناس، فقد ربط المبرّد بين الفن والحياة في اختياراته، واشترط لاختيار النصوص أن يكثر تردد معناه بين الناس.

والملاحظ أن أغلب الأشعار التي وقع اختيار المبرّد عليها مادة لكتابه كانت تعبر عن حزن صادق، ومشاعر جيّاشة وشوق حارق، وكانت مطبوعة بريئة من التكلف والتصنع؛ وسرّ ذلك هو لكون الشعراء الذين اختار لهم المبرّد قد قاسوا ألم فقد إنسان مقرب لهم من ولد أو أخ أو أب فخلّدوا ذكرى من فارقهم بذاك السحر الحلال بالشعر الصادق وليعزوا به أنفسهم، وهذا ما فعله المبرّد نفسه حين لجأ الى تأليف هذا الكتاب ليجمع فيه عيون الشعر العربي في الرثاء ليعزي بها نفسه المفجوعة بأقرب الناس إليه وليستذكر بتلك الأشعار خصال الفقيد الحميدة.

المطلب الثاني: دراسة اسلوبية في اختيارات المبرّد الشعرية وذائقته

إنّ اختيارات المبرّد في كتابه التعازي والمراثي اقتصرت على فن الرثاء، سوى نطف استشهد بها المبرّد على معنى من المعاني، أو ظاهرة لغوية؛ والشعراء الذين اختار لهم تجاوزوا المئة مقسمين الى جاهليين وإسلاميين ومعاصرين للمبرّد، ولا يمكن لهذا البحث أن يغطي أشعارهم جميعا لذلك ستقتصر دراستنا على الشعراء الذين حكم المبرّد على أشعارهم بالجودة صراحة وقدمها. وقبل التطرق الى تلك الأشعار المختارة حري بنا الوقوف عند مفهومي الرثاء والتعزية ثم نعرض بعده الى تلك الأشعار.

فالرثاء هو: بكاء الميت ومدحه؛ وهو يوافق المديح في المعاني وبخالفه في المشاعر. (13)

والرثاء من الأغراض المرتبطة بالنفس الإنسانية إذ يتضمن التعبير عن الحزن والألم جراء فقدان شخص قريب؛ ومعظم المراثي التي وصلت إلينا تميزت بصدق اللوعة وحرارة العاطفة. (14)

وتعد المراثي الجاهلية من أجود أشعار العرب، وقد برعت المرأة في هذا الميدان ووجدت فيه حتى طغى على أغراضها الاخرى الشعرية وما ذلك الا من طبيعة المرأة الوجدانية بوصفها أكثر ميلا للحزن والأسى والبكاء، على عكس الرجل الذي فرضت عليه الاعراف الاجتماعية أن يتسم بالصبر والجلادة والتحمل.⁽¹⁵⁾

والتعزية ما هي الا رثاء، إلا أن الرائي إذا تجاوز البكاء والاستذكار الى التأمل في حقيقة الموت والحياة فإن الرثاء يصل الى مرتبة العزاء.

والعزاء هو: "الصبر ثم اقتصر استعماله في الصبر على كارثة الموت وأن يرضى من فقد عزيزا بما فاجأ به القدر".⁽¹⁶⁾

قال المبرد: "وتعزيتك الرجل تسليتك إياه، والعزاء هو السلو وحسن الصبر على المصائب، وجزء من المصيبة العوض والرضا بقضاء الله والتسليم لأمر تنجزا لما وعد من حسن الثواب..."⁽¹⁷⁾

وهذا النص يعكس ثقافة المبرد الدينية، فإنه يعزي نفسه ومن فقد مقربا بالرضا بقضاء الله والاحتساب والاستجابة لأمر الله تعالى بالصبر لينيل الأجر والثواب.

وذكر المبرد أن التعزية هي أكثر ما تكلم فيه الناس "لأنه لم يعر أحد من مصيبة بحميم، ذلك قضاء الله على خلقه فكل تكلم إما متعزيا أو معزيا وإما متصبرا محتسبا".⁽¹⁸⁾

إن من أبرز الظواهر التي تكشفها لغة الخطاب في التعازي الإصرار من المعزين على الصبر وعدّه قيمة عليا، والتنفير من الجزع والضعف، وعدّ الصبر من مكارم الأخلاق في الجاهلية والإسلام؛ وقد أشار المبرد الى ذلك في الكلام الذي نقله من شيخه المدائني: "كانت العرب في الجاهلية وهم لا يرجون ثوابا ولا يخشون عقابا يتحاضون على الصبر ويعرفون فضله ويعيرون بالجزع أهله إثارا للحزم وتزيّنا بالحلم وطلبيا للمروءة وفرارا من الاستكانة الى حسن العزاء"

فإذا كان هذا حال العرب في الجاهلية وهم "لا يرجون ثوابا ولا يخشون عقابا" يتحاضون على الصبر فما بالك بالمسلمين الذين يؤمنون بالله وباليوم الآخر.⁽¹⁹⁾

وأول الشعراء الذين حكم المبرد على جودة شعرهم هو دريد بن الصمة، قال المبرد متحسنا شعره: "وأما مرثية دريد بن الصمة فكان الأصمعي يقدمها جدا، وهي أهل لذلك".⁽²⁰⁾

ولا يخفى أن قوله: "هو أهل لذلك" هو حكم بجودة شعره وأنه قد استحسناها واستشهد بأبيات منها:

وقلت لعارضٍ وأصحاب عارضٍ ورهط أبي السّوادِ والقوم شهدي
أمرتهم أمري بمنعرج اللّوى فلم يستبينوا النَّصح إلا ضحى الغدِ
فلمّا عصوني كنت منهم وقد أرى غوايتهم وأنني غير مهتدي
فما أنا إلا من غزيرة إن غوت غويثٌ وإن تُرشد غزيرةُ أرشد
فقلت لهم ظنّوا بألف فارس مقاتلٍ سراتهم في الفارسيّ المسرّدِ
فنادوا وقالوا أزدت الخيلُ فارساً فقلت أ عبدُ الله ذلكم الرّدي
فجئت كأمّ البوّ رعت فأقبلت الى جلدٍ من جلد سقبٍ مقدّدِ
فما راعني إلا الرماخ تنوشه كوقع الصّياصي في النسيج الممدّدِ
فإن يك عبدُ الله حلّى مكانه فما كان وقّافا ولا طائشَ اليدِ
كميشُ الإزار خارّج نصفَ ساقه بعيدٌ من السّوءات طلاع أنجد

قليل التشكي للمصيبات حافظاً مع اليوم أدبار الأحاديث في غد

وهوّن وجددي أنني لم أقل له كذبت ولم أبخل بما ملكت يدي⁽²¹⁾

تعدّ مرثية بن الصمة في أخيه قصيدة مهمة من قصائد الشعر المختارة، اختارها غير واحد من القدماء،⁽²²⁾ ضمن اختياراتهم الشعرية التي قامت على ترسيخ الفن و الجمال والقيم العربية الأصيلة.⁽²³⁾

وقد افتتح الشاعر هذه الأبيات بأسلوب خبري لأنه بصدد بيان موقفه من القبيلة وتفاعلها معه، وتفانيه فيها، فهو جزء منها؛ لذا نجده جاء بالخبر خالياً من المؤكدات (ابتدائياً) ليحصل السامع به على الفائدة ((إذ ان خلو الذهن من الشيء يوجب استقراره فيه))⁽²⁴⁾، ويصوّر الشاعر في هذه الأبيات نفسه حكيم القوم وكاهنهم فهو يرى ما لا يرونه فيحذرهم (ألقي مدحج) ويحذرهم من الغرور بالنصر؛ ومن هنا نلاحظ أهمية القول والتنبيه في قوله: (وقلت لعارض وأصحاب عارض)، ويلاحظ هنا أن اختيار اسم (عارض وأصحابه) لم يأت اعتباطاً، وإنما هم الذين عارضوا أمر الشاعر وحينما لم يجد القول أمرهم بالحيلة، واستخدم الفعل ومصدره لإفادة التوكيد في قوله: (أمرتم أمري بمنعرج اللوى) وحدد المكان ليثبت الواقعة ويبرئ ذمته مما حصل لقومه الذين عصوه ولم يتثبتوا صحة رأيه إلا بعد فوات الأوان فما كان له وهو المتفاني في حب قبيلته إلا أن يجاريها وهو على يقين منضالها، وقد أحسن التعبير عن ذلك بـ (لما) الظرفية الشرطية وجواب الشرط (كنت) المترتب على وجود الأول والمسبب عنه، وما يوحيه من معان من خلال قيام الخبر على الشرط المبين للجزاء الذي هو نتيجة عملهم معبراً عن ذلك بجملة من الأفعال الماضية (قلت- أمرتم-عصوني) للدلالة عن أحداثٍ منتهية متسلسلة كما بدى من السياق، إلا انه كسر وتيرة هذه الأفعال في الفعل المضارع (أرى) مسبوقه بـ(قد) ليدل على التجدد والاستمرار وكأنه يريد أن يثبت بأنه جزء من قبيلته وسيبقى برغم الذي حدث معها في غيابها ورشادها وما الأفعال التي تدل على المستقبل إلا إجماعاً بأن انتماء الشاعر الى القبيلة وموقفه المتفاني منها لا يقتصران على اللحظة الآنية بل يستمران مادام الشاعر حيا.⁽²⁵⁾

وفي اطار المستوى الدلالي نجد انه قد استخدم التشبيه في بيان كبر فاجعته وشدة حنوه على أخيه حيث شبه نفسه بتلك الناقة التي فجعت بقتل صغيرها وسلخ جلده واستمراره بملازمة هذا الجلد محشاً بالقش داراً للحليب، ويؤكد هذا المعنى وهو يرسم صورة القسوة التي قُتل به أخيه بتشبيه آخر في قوله (... كوقع الصياصي...) حيث شبه صوت الرماح وهي تخترق جسد أخيه بصوت مسلة النساج وهي تدخل وتخرج من البساط الممد، ان الشاعر اثبت بهذه الصورة التشبيهية الفكرة وأكد المعنى ذلك لان ((التشبيه يزيد المعنى وضوحاً ويكسبه تأكيداً ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغن احد منهم عنه))⁽²⁶⁾ إن التقابل المتجانس في أبيات القصيدة ساعد على انسيابية خاصة في إيقاع المعنى والدلالة على حدٍ سواء، إذ ((تكشف عن طبيعة العلاقة بين الالفاظ المتقابلة في محاولة لتفسيرها وإيجاد سماتها المختلفة وما تختزنه من قيم دلالية))⁽²⁷⁾ وعليه فإن هذه الظاهرة بُنيت على علاقات صوتية واخرى دلالية لتؤدي وظيفة اسلوبية في تأكيد المعنى، فضلاً عن تكرار الأفعال والتجمعات الصوتية الناجمة عن: غزية، غويت، ترشد، أرشد وما الى ذلك من أثر في تركيز الإيقاع الصوتي؛ إذ ((إن للتكرار خفةً وجمالاً لا يخفيان، ولا يغفل أثرهما في النفس))⁽²⁸⁾

ومن خلال هذه الإضاءة لهذه الأبيات يتضح لنا ذائقة المبرد العالية في تذوق النصوص الشعرية وجودتها وإلا ما كان ليختارها لا هو ولا من سبقه.

ونقل المبرد عن أبي عبيدة قوله في أوس بن حجر ما نصه: "كان أوس بن حجر شاعر مضر في الجاهلية حتى نشأ زهير والنابعة فوضعا منه، ولكنه شاعر تميم غير مدافع"⁽²⁹⁾

ثم استشهد المبرد من شعر أوس قوله:

إن الذي جمع السماحة والنـ حدة والبأس والقوى جُمعا
 الأملعي الذي يظن بك الظـ من كأن قد رأى وقد سمعا
 والتلفُ المخلفُ المرزأُ لمـ يمتنع بضعفٍ ولم يمت طبعًا
 والحافظُ الناسَ في تحوطٍ إذا يرسلوا خلف عائدٍ زبعا
 وعزّت الشمال الرياح وقد كميع الفتاة ملتفعا
 وشبه الهيدبُ العمام من الأقـ وام سقباً ملبساً فرعا
 وكانت الكاعب الحسناء الممدّـ عة في زاد أهلها سبعا
 لبيكك الشرب والمدامة والـ فتيان طراً وطامع طمعا
 وذات هدمٍ عارٍ نواشرها تصمّث بالماء تولباً جدعا⁽³⁰⁾

ويبدو أن هذه الأبيات قد استطاعت النفاذ في نفس المبرد وتترك بصمتها فيها حتى جعل المبرد يقف في كل بيت يشرحه ويوضحه؛ قال المبرد: " (الحذر أشد من الوقعة) وإنما حق الشيء المتخوف أن يكون صاحبه مرتاعا حذر وقوعه، فإذا وقع البأس ارتفع ذلك الحذر".⁽³¹⁾

وقال: " والألمعي الحديد القلب الذي يوقع الشيء موقعه ومثل هذا لا نعلمه لأحد".⁽³²⁾
 ثم مضى بالشرح لباقي أبيات القصيدة بضيق المقام لذكره.

ولعل هذه القصيدة شبيهة بسابقتها (مرثية دريد بن الصمة) من حيث الغرض العام لكليهما لكنها تبدو أخف وطأة، إذ تعد هذه الأبيات من النصوص ذات الدلالات الاسلوبية المتعددة، حيث يطالعنا منها في مستواها التركيبي هيمنة التراكمات الوصلية في (...السماحة والنجدة....) (والتلف... (والحافظ... (وعزّت....) (وشبه... (وكانت... (وذات هدم...))، وما هذه الاخبار التي جاءت بصيغة الجمل الفعلية في أغلبها الا لاتحاد هذه الجمل لفظاً ومعنى بما في ذلك الاتحاد في الزمان والفاعل⁽³³⁾، مما نستشفه من النص الذي يدور حول رثاء فضالة بن كلدة ان الشاعر اصبح على قناعة من ان شدة الحذر من الوقوع في شيء معين يوقع الانسان في ماحذر منه، فقام ببناء النص على جمل متحدة في الخبرية متناسبة المعاني، ولا من سبب يقتضي الفصل بينهم ولذلك وصلت⁽³⁴⁾ فضلاً عن الاشراك الدلالي والمعنوي ((ولا يتصور اشراك بين شيئين حتى يكون هناك معنى يقع ذلك الاشراك فيه))⁽³⁵⁾

ثم يتحد المستويان الدلالي والصوتي ليكونا ظاهرة اسلوبية وتناغماً رائعاً بين الكناية في مطلعها والتشبيه في وسطها من جهة والتكرار والتجانس في نهاية القصيدة من جهة أخرى وهي بهذا شكلت بناءً اسلوبياً للنص بدلالاتها العميقة خصائص بارزة ميزت هذه الآبيات عن سواها، من خلال وظيفتها المزروجة التي جمعت بين الوظيفة الفنية والنفسية.

ومن الذين استحسّن المبرد شعرهم متمم بن نويرة، فمما قال في استحسانه لشعره: " مرآئي الجاهلية المستحسنة والمستجادة المقدمة معلومة موسومة منها قصيدة متمم بن نويرة في أخيه مالك علة أن سائر أشعاره غير مذموم وإن تقدمهن العينية التي أولها: لعمرى وما دهري بتأبين هالك ولا جزع مما أصاب فأوجعا"⁽³⁶⁾

وبعد أن أورد قصة مقتل مالك بن نويرة أخي متمم عاد الى عينية متمم وقال: " نرجع الى اختيارنا من العينية ففيها من حر الكلام، وصادق المدح قوله:

إذا ابتدر القوم القдах وأوقدت لهم نار أيسار كفى من تضجعا

بمثنى الأيادي ثم لم تلف مالكا على الفرث يحمي اللحم أن يتمرغا
وقوله:

وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
وعشنا بخير في الحياة وقبلنا أصاب المايا رهط كسرى وتبعنا
فلما تفرقنا كأبي ومالكاً لطول اجتماع لم نبت ليلة معا
وفيها مما يختار :

أقول وقد طار السنا في ربابه وغيث يسح الماء حتى تريعا
سقى الله أرضا حلها قبر مالك ذهاب الغواذي المدحجات فأمرعا
وأثر بطن الواديين بديمة ترشح وسميا من النبت خروعا
تحيته مئي وإن كا نائيا وأضحى ترابا فوقه الأرض بلقعا
... " (37)

تعد قصيدة متمم في رثاء أخيه مالك التي اختارها المبرد من أروع القصائد التي تمثل صورة الخطاب الشعري العربي المشحونة بمشاعر الحب والوفاء لذكرى الأخ الفقيد، وقد ضمن الشاعر قصيدته استعارات ذات وظيفة حجاجية بوصفها دلالة معنوية وبناء معرفي يؤثر في النص والمتلقي بغية إيصال أهدافه الحجاجية المتمثلة في اقناع الناس بأن أخاه كان يتحلى بخصال النبيل والكرم والأنفة فكيف يُقتل مع المرتدين ومانعي الزكاة؟ وهو بهذا المعنى يستمر بإلحاحه على مدح أخيه وذكر مآثره قد هيج جروحه وهو مسوغ آخر لاستمراره على البكاء، لذا نجد هيمنة الأفعال المضارعة على النص وكسر روتين النحيب والبكاء بذكر الفضائل وإظهار الألم والحزن الذي خيم عليه.

ومن هذه الاستعارات التي وظفها الشاعر:

- لبيبا أعلن اللب منه سماحة
- فعيبي جودا بالدموع
- إذا ضرس الغزو الرجال وجدته أخا الحرب صدقا
- فإن تكن الأيام فرقن بيننا فقد بان محمودا أخي حين ودعا
- أصاب المنايا رهط كسرى
- لوعة حزن ترك الوجه أسفعا

والشاعر بهذه الاستعارات التي شكلت مهيماً اسلوبياً في قصيدته ينفي عن الكلمات معانيها الحرفية ويكسبها معانٍ سياقية جديدة، وذلك للتدليل على جلال مصابه، ف(الأروع واللييب والخصيب والأغر) عناصر لغوية استعارها الشاعر ليقنع متلقيه أن أخاه لم يكن رجلاً عادياً وإنما كان من سراة قومه لذلك نجده في قوله في القصيدة: (أ عيني جودا) يخاطب عينيه أن تجودا بالدموع، لأنه يعز عليه فراق أخيه الذي يستقي القوم ونحر لهم يكف قومه شر الأعداء، وبرغم حزنه الشديد إلا أنه يعود فيؤاسي نفسه من خلال تذكره أن الموت لا يستثني أحداً، حتى رهط كسرى أصابتهم المنية برغم قوتهم وسطوتهم.⁽³⁸⁾ وهو بهذا التنوع في الخطاب بين الغائب والمخاطب رسم أكثر من صورة مما يشد القارئ إلى متابعة تلك الصور والانجذاب نحوها.

ومن الذين استحسن المبرّد شعرهم الخنساء، قال المبرّد: "واعلم أن قول الخنساء من أجمل الكلام حيث تقول:

وإنّ صخرًا لوالينا وسيدنا وإن صخرًا إذا لنخار

وإن صخرًا لتأتّم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

فجعلته موضعا في للسؤدد ومعنيا بأمة العشيرة بقولها: لوالينا وسيدنا، وجوادا مفضلا نخار في وقت الإقتار والشقوة ثم قالت: وإنّ صخرًا لتأتّم الهداة به؛ فجعلته إمام الأئمة ثم جعلته علما، والعلم الجبل، فلم تقتصر على ذلك حتى جعلت في رأسه نارا شهرة في الكرم ونارا على الهداية فلله درّها". (39)

وقال عن شعرها: "ومما قدمناه من شعرها واستحسنناه من تلخيصها قولها:

أعييّ جودا ولا تجمدا إلا تبكيان لصخر الندى

الإ تبكيان الجريء الجميل إلا تبكيان الفتى السّيدا" (40)

وقال في شأنها أيضا: "وكانت الخنساء تقول الأبيات اليسيرة حتى أصيبت بأخيها صخر فجدّت وأجدت ، وجمعت نفسها وشهرت، فمما يستحسن من شعرها قصيدة أولها:

يا عين جودي بدمع منك مغزار وإبكي لصخر بدمع منك مدرار... " (41)

إن مراثي الخنساء انطلقت في الغالب إما للحديث عن حزنها بأسلوب تفجعي يدل على عاطفة داخلية مملوءة بالحزن والأسى وهي عاطفة تفجعية، وإما لتعداد خصال المرثي ومناقبه الحميدة معتمدة على أسلوب وصفي يقوم على تعداد هذه الخصال والمناقب ورسم صورة مثالية له بغية تخليده. (42)

وعند تتبع البناء الأسلوبي للنص واتحاد مستوياتها نلاحظ على الأبيات التي استشهد بها المبرّد هيمنة الجملة الاسمية المؤكدة بمؤكدات نحوية وصرفية، وقد تجلّت باستعمال تركيب خبري اسمي تكرر لعدة مرات، فنلاحظ هيمنة نموذج نحوي اسمي مكون من: (إنّ واسمها وخبرها) وقد أكد هذا النموذج بمؤكدين هما: (إنّ واللام المرحلقة) ((مع اقترانها بأسلوب الوصل الكامن في حرف (الواو) أداة الوصل الاساسية الذي يبين صوغ المتتاليات اللسانية المتعاقبة المتناسقة)) (43) وآزر هذه المؤكّدات مؤكّدات صرفية تمثلت بمشتقات مبالغة اسم الفاعل (فَعَال) و(مفعال)، واللافت أن هذه المركبات النحوية على كونها من قبيل الخبر الابتدائي أكدت باكثر من مؤكّد مما يعني ان التوكيد لا يأتي مراعاة لمقتضى حال المخاطب فقط وإنما قد يأتي مراعاة لحال المنشئ؛ فمما لاشك فيه أن الإفراط في ذكر المؤكّدات عند الخنساء في هذه القصيدة قد جاءت ترجمة للإفراط في عمق أحاسيسها وانفعالاتها. (44)

والملاحظ الأسلوبي في كثرة استعمال الخنساء في قصيدتها مثل: (مدرار، نخار، مغوار، نصّار) مكافئة لعمق مشاعر إعجاب الشاعرة بمراثيها، وحزنها الشديد عليه لما تقوم عليه من بنية صوتية حاملة لهذه المشاعر ومعبرة عنها، ولأن مبالغة اسم الفاعل تدل على المبالغة في أنجاز الموصوف بما لما تدل عليه الأحداث لمعناها المعجمي؛ ثم إن صيغة المبالغة (فَعَال) فيها معنى الكثرة وتكرار وقوع هذه المعاني في الذهن، فهي صيغة تتصرف فيها المعاني أكثر. (45)

وبهذا التوظيف المبدع استطاعت الشاعرة أن تحمل مشاعر اللوعة الحارقة على فقد أخيها الى نفس المتلقي بخطى واثقة، وكان المبرّد أحد هؤلاء الذين أثرت فيهم القصيدة حتى أخذ يزين بها كتابه في أكثر من موضع، وما كان ليفعل ذلك لولا تأثره بالقصيدة المثقلة بالمشاعر الصادقة واللوعة الحارقة، وآية ذلك أنه أبدى إعجابه لشعر الخنساء، كما فعل في اختياراته كلها التي كما اسلفنا كانت غاية الروعة بتمييزها التركيبي والفني ومرد ذلك الى الذائقة الشعرية والنقدية الفذة التي تمتع بها المبرّد. ومن هنا كان اختيار

المنهج الاسلوبي لهذا البحث كونه لائم مادته فالأسلوبية تتمتع بمرونة المنهج وسعة مستوياتها إذ تميز لغة الادب عن الاستعمال العادي للغة بالكشف عن وظيفة النص التأثيرية والجمالية⁽⁴⁶⁾.

الخاتمة

- كشف كتاب التعازي والمرثي عن قدرة المبرد النقدية فكان بحق رائدا من رواد النقد
- إن الاختيارات الشعرية هي عملية تذوقية ممزوجة بالإبداع للمؤلف لما يختاره من نصوص وبما يكرسه من حسن جمالي حول تلك النصوص وهذا من صميم عمل الناقد
- إن الاختيارات عملية تذوقية تحتاج الى بصيرة ودراية ولا يتأتى ذلك الا لمن يتمتع بتراكم الخبرة بالشعر وطرقه، وهذه الذائقة ليست فطرية بل هي قائمة على الدربة والممارسة، والمبرد يحكم ثقافته العالية وطول باعه في النصوص كان يمتلك هذه الميزة ولذلك جاءت اختياراته دقيقة
- إن أغلب الأشعار التي اختارها المبرد كانت تعبر عن مشاعر صادقة ولوعة صادقة حارقة وما ذاك إلا لكون الشعراء الذين اختار لهم قد قاسوا لوعة فقد العزيز من أخ أو ولد ولذلك جاءت أشعارهم مثقلة بصدق المشاعر، وقد كان المبرد حريصا على ذلك لأن دافعه لتأليف الكتاب هو طلب السلوان والتأسي بمصاب الذين اختار لهم.
- التنوع الاسلوبي للنصوص التي اختارها في مستوياتها التركيبية والدلالي والصوتي مما ميز هذه المختارات عن غيرها.
- هيمنة الاسلوب الخبري والفعلي منها ولعل هذا راجع لطبيعة هذه المختارات وغرضها الرئيسي (المرثي).
- تمتعت هذه النصوص بتناغم وانسجام صوتي تجلى في التكرار والتقابل والتجانس.

الهوامش:

- 1) التعازي والمرثي: 39
- 2) المصدر نفسه: 58
- 3) المصدر نفسه: 171
- 4) مقدمة في النقد الأدبي، محمد حسن: 444
- 5) قراءة في الأدب الحديث، أحمد زلط: 67
- 6) الرؤية النقدية في الاختيارات الشعرية، طراد الكبيسي: 1
- 7) في علم النفس، حامد عبد القادر: 248
- 8) الذوق الأدبي في النقد القلم، ليلي عبد الرحمن الحاج قاسم: 8
- 9) مقدمة ابن خلدون: 562
- 10) الذوق الأدبي في النقد القلم: 8
- 11) في نظرية الأدب: 93/1
- 12) الوسائط، الجرجاني: 310
- 13) الأدب الجاهلي، غازي طليمات: 194

- 14) قراءة جديدة في شعر الخنساء، د. جبار اللامي: 2
- 15) المصدر نفسه
- 16) تاريخ عصور الأدب ، د. شوقي ضيف: 316
- 17) المراثي والتعازي : 45
- 18) المصدر نفسه: 42
- 19) جدلية اللغوي والاجتماعي في خطاب التعازي، خلود ابراهيم العموش: 188
- 20) المراثي والتعازي: 56
- 21) المصدر نفسه: 58
- 22) دالية دريد بن الصمة دراسة اسلوبية، د. بتول البستاني : 7
- 23) المصدر نفسه
- 24) شرح عروس الافراح، للسبكي : 111/1
- 25) ينظر: دالية دريد بن الصمة دراسة اسلوبية، د. بتول البستاني : 7
- 26) الصناعتين: 249
- 27) ظاهرة التقابل الدلالي في اللغة العربية، رسالة ماجستير: 53
- 28) ظواهر اسلوبية في الشعر الحديث في اليمن: 256
- 29) التعازي والمراثي: 63
- 30) المصدر نفسه : 63 وما بعدها
- 31) المصدر السابق: 64
- 32) المصدر السابق
- 33) ينظر ظاهرة الاتحاد في النحو العربي، ا.م.د. وعد دليان أنور، بحث منشور في مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، مج 14، ع1، 2019 : 39
- 34) ينظر في البلاغة العربية (علم المعاني): 169
- 35) دلائل الاعجاز: 172
- 36) التعازي والمراثي: 50
- 37) المصدر نفسه : 52
- 38) تداولية الاستعارة الحجاجية لنص الرثاء مرثية متمم بن نويرة اموذجا، وشن دلال: 12
- 39) التعازي والمراثي: 61
- 40) المصدر نفسه: 117
- 41) المصدر نفسه: 119
- 42) قراءة جديدة في مراثي الخنساء: 7

- 43) التنبهات الاسلوبية في سورة الجن، أ.م.د. مازن موفق صديق الخيرو، بحث منشور في مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، مج 15، ع2، 2020م : 117
- 44) التركيب اللغوي في شعر الخنساء في ضوء علم اللغة الحديث ميلود حركاتي، :95
- 45) المصدر نفسه
- 46) ينظر الاسلوبية والاسلوب، للمسدي: 36

ثبت المصادر:

- الأدب الجاهلي، غازي طليمات، دار الارشاد، حمص
- الاسلوبية والاسلوب، د.عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، تونس، ط2، 1982م.
- تاريخ وعصور الأدب ، د. شوقي ضيف، دار المعرف ، مصر
- تداولية الاستعارة الحجاجية لنص الرثاء مرثية متمم بن نويرة أمودجا، وشن دلال، مجلة المخبر، الجزائر
- التركيب اللغوي في شعر الخنساء في ضوء علم اللغة الحديث، ميلود حركاتي، رسالة ماجستير بإشراف الاستاذ الدكتور عيَّاش فرحات/ جامعة باتنة
- التعازي والمرثي والمواظ والوصايا، أبو العباس المبرد، تحقيق: إبراهيم محمد حسن الجمل، نَهضة مصر للطباعة والنشر.
- التنبهات الاسلوبية في سورة الجن، أ.م.د. مازن موفق صديق الخيرو، بحث منشور في مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، مج 15، ع2، 2020م.
- جدلية اللغوي والاجتماعي في خطاب التعزي في التراث العربي، خلود إبراهيم العموش، مجلة جامعة دمشق المجلد 28 العدد الثاني 2012
- دالية دريد بن الصمة دراسة اسلوبية، د. بتول البستاني، مجلة آداب الرافدين ، العدد 55.
- دلائل الاعجاز (في علم المعاني) ، للأمام عبد القاهر الجرجاني، صححه: الشيخ محمد عبده ، تحقيق: السيد محمد رشيد رضا، دار المنار - مصر ط3، 1366هـ.
- الذوق الأدبي في النقد القديم، ليلي عبد الرحمن الحاج قاسم، رسالة ماجستير بإشراف الاستاذ الدكتور: لطفي عبد البديع / جامعة أم القرى/ مكة المكرمة/1404هـ.
- الرؤية النقدية في الاختيارات الشعرية، طراد الكبيسي، مجلة نزوى، مؤسسة عمان للصحافة والنشر، المملكة الأردنية الهاشمية.
- شرح عروس الافراح، السبكي، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، ط1، المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت، 2003م .
- ظاهرة الاتحاد في النحو العربي، ا.م.د. وعد دليان أنور، بحث منشور في مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، مج 14، ع1، 2019.
- ظاهرة التقابل الدلالي في اللغة العربية، عبد الكريم محمد حافظ العبيدي، رسالة ماجستير ، كلية الآداب - الجامعة المستنصرية، 1410هـ - 1989م.

- ظواهر اسلوبية في الشعر الحديث في اليمن (دراسة وتحليل)، د. أحمد قاسم، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء- اليمن، ط1، 1417هـ-1996م.
- في البلاغة العربية (علم المعاني)، عبد العزيز عتيق، ط1، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان، 2009م.
- في علم النفس، حامد عبد القادر، الدار الجامعي الحديث، 2017.
- قراءة جديدة في مراثي الخنساء، د. جبار اللامي، مجلة كلية التربية، جامعة ميسان.

